ويرى الدكتور محمد مندور أن مصطلح «الواقعية» محدد في الغرب «لم ينزل به الاضطراب، ولم يمح حدوده المعنى الاشتقاقي»[٦] الأصلي الذي يعود إلى لفظة «الواقع»، على العكس مما عندنا نحن العرب، والحقيقة أن هناك اضطراباً كبيراً في مفهوم هذا المصطلح، ليس عند العرب فحسب، ولكن عند الغربيين أيضاً، فليس من شك في أن مفهوم «الواقعية» في نظر «إيميل زولا» أو «فلوبير» يختلف تماماً عن مفهومها عند «جوركي» أو «فيشر» أو «جورج لوكاتش».

ويمكن القول بأن بذور المذهب الواقعي قديمة جداً، تلاحظ في طبائع البشر الذين ينقسمون إلى مثاليين وواقعيين بطبيعتهم، فالمثاليون لا يحبون الانغماس في الواقع، ويميلون إلى التحليق بخيالهم في عوالم أسطورية، أو يؤثرون الانسياق وراء الأماني الوهمية التي قد تصبح في نظرهم حقيقة ملموسة. وعلى حد تعبير الدكتور محمد مندور، فإن «رغبات النفس قد تبلغ أحياناً من القوة بحيث تختلط بالواقع، فلا يستطيع صاحبها أن يميز بينه وبين الحياة»[٧]، أما الواقعيون فإنهم يمتازون بالحذر وشدة الانتباه إلى الحياة المحيطة بهم ورؤيتها مجردة كما هي في الواقع من غير تزييف. وهذا يعد مفهوماً آخر لمصطلح الواقعية يضاف إلى بعض المفاهيم التي أشرنا إليها.

وإذا كانت بذور الواقعية ملاحظة في طبائع البشر منذ القديم فإنها بالتالي ملاحظة بالضرورة في الأدب بوصفه معبراً عن طبائع الناس ونفسياتهم وعاكساً لها.

لقد ظهرت بذور الواقعية عند كثير من أدباء الإغريق، من أمثال «هوميروس» الذي نجد سمات واقعية ملموسة في ملحمتيه «الإلياذة» و«الأوذيسة»، منها سمة الأسلوب الممثل للأشياء بجميع أبعادها وجوانبها وأجزائها، بحيث تبدو تلك الجوانب منظورة، واضحة محددة، لا لبس فيها ولا غموض، فالأشياء عند «هوميروس» كلها معرضة لضوء الأسلوب المباشر الذي يعطينا كل أبعادها من أول لحظة. ومنها أيضاً عدم التورع عن مزج